الشيخ عبد المجيد بن حبة العقبي
العلامة الزاهد 1911 - 1992

الأستاذ محمد بن سمينة
- جامعة الجزائر

جرت العادة أن يترجم الناس الى من يترجمون سيرا ذاتية ، تبدو فيها الحيدة وتتسم بالبرودة لكن هذه الترجمة بدت دافئة ، بالحب المعقلن والوفاء الذي نكاد نفقده في أيامنا . فقد تتبع الأستاذ محمد بن سمينة ، حياة العلامة الشيخ عبد المجيد بن حبة رحمه الله - تتبعاً بدت فيه الروح الأدبية متوجة بالأسلوب الجزل الذي صاحب التتبع الدقيق لحياة الفقيد .

وفي هذه الترجمة بدت لنا معالم أدب التاريخ وبها بدأ المترجم للفقيد ، مؤرخاً وأديباً ومحباً في آن وبهذا النص الأدبي الراقي ، تسعد مجلة اللغة والأدب أن تضمه الى هذا العدد ، وهي تدعو للفقيد بالرحمة على ما قدم لهذا الوطن وقد كان فيه المجاهد والعلامة القائل «إن رحنا الى السوق فالعلم في السوق» فرحم الله الفقيد وجزى الله كاتب هذه السيرة خير جزاء (حواس بري) .

قال محمد بن سمينة :

تصاب الأمم الحية في فعاليتها الحضارية وفي عطائها الإنساني كلما خبا نجم من نجوم المعرفة من أبنائها ، غير أن ذلك لم يكن ليقوى على النيل من عزيمتها ، أو يثنيها عن القيام بواجبها ، ولذلك سرعان ما تجمع قواها وتنهض من كبوتها وتمضي بدافع الوفاء ، وعزاء الذات الى تخليد مآثر أعلامها الراحلين ، وتقديم أعمالهم ومواقفهم للأجيال كمعالم قدوة ، يسترشدون بها في خدمة قضاياها والغيرة على مقوماتها ، والدفاع على مصالحها ...

وأين تقف أمتنا حاضراً في هذا المضمار بين الأمم ؟ فهل هي ما تزال - كما كانت في سالف

عهودها - تحتفظ بوعيها التاريخي ، أم أن الوهن الحضاري قد دب في أوصالها الفاعلة ، فاختل جهازها الفكري ، واعتل ضميرها بمرض التنكر لصانعي أمجادها ، ورافعي لواء عزتها بين الأنام ، والانشغال عنهم بغيرهم ممن يملؤون الساحات والقاعات بالليل وبالنهار هرجاً ومرجاً ، ومع ذلك ترتفع الأصوات هنا وهناك بالإكبار والتشجيع والاستحسان لما يصنعون ؟!

أما العلماء الأعلام والمجاهدون الأبطال الذين قضوا حياتهم يتصدرون خطوط المواجهة ، ويصارعون التحديات ذودا عن المقومات الذاتية والقيم الحضارية لأمتهم ، فأنهم يرحلون عنا في صمت ، ويتخطفهم الموت من بيننا ولا يكاد ينالهم في مماتهم كما في حياتهم ما يرقى الى مستوى عطاءاتهم وجهادهم ، من صلات الوفاء وألوان التكريم .. ومن استثنى من هذا - لسبب من الأسباب - وأصابه بعض الذكر فإن تلك الشعلة لم تلبث أن تنطفئ فبطويه النسيان في ذاكرتنا وفي مجريات حياتنا كما طوى من قبله الأولين والأخرين ...

ومن بين هؤلاء الأعلام الذين رحلوا عنا الرحيل الأبدي العلامة الشيخ عبد المجيد بن حبة الذي اختاره الله الى جواره يوم 19 سبتمبر من العام المنصرم 1992 وقد قضي عمره - رحمه الله - في طلب العلم ، ناشراً له بين الخاصة والعامة ، غيوراً على مقدسات الأمة ، ساعياً في حاجات الناس ، حريصاً على التمكين لعرى الأخوة وأسباب الوئام بين جميع أفراد المجتمع ...

وحسب هذه الكلمة أن تعرض - بقدرما تسمح به المعطيات المتوفرة في الوقت الراهن لبعض تطورات حياة الفقيد عبر أطوارها المختلفة : نشأة وتعلماً وتعليماً وجهاداً وعطاء ...

ويمكن أن يتمركز الحديث في هذه الجوانب حول المحاور الآتية : النشأة والتكوين - وجوه تحصيله العلمي - نشاطه التعليمي - جهاده في الحقلين الاجتماعي والوطني ، ابتلاؤه في آخر حياته - آثاره ...

أولاً : النشأة والتكوين :

ينحدر الفقيد من أسرة (آل حبة) الموصولة أصولها بقبيلة (بني سليم) العربية التي تتمركز أو يتمركز بعض بطونها في الجزائر ببادية (أم الطيور) وما جاورها بناحية (المغير) ولاية (وادي سوف) حالياً .

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عقد بعض أفراد أسرة الفقيد بعض الصلات بأهالي بلدة (سيدي عقبة) ولاية (بسكرة) ولم يلبث بعضهم أن اشترى بها أملاكاً ، فكان ذلك

من بين أسباب انتقال الأسرة إليها لتستقر بها نهائياً ، مع بقائها على علاقاتها ببلدة المغير حيث توجد بعض أملاكها .

وبهذا الموطن الجديد (سيدي عقبة) كان والد الفقيد يستغرق معظم وقته الى جانب أفراد الأسرة في الاشتغال بالفلاحة في حقول الزرع وبساتين النخيل ...

وفي هذا الجو الأسري ، وبجوار ضريح فاتح المغرب القائد المظفر عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه ، ولد الصبي عبد المجيد (1911 لأبيه محمد بن حبة) ففرحت به الأسرة ، أيم فرج ، ووفرت له الأسباب التي جعلته يحظى وحده بكامل عناية أبيه (لم يكن لوالده ولد غيره) ولما بلغ سن الرابعة من عمره دخل (الكتاب) على عادة أهل البلاد ، ولم يلبث أن استظهر القرآن الكريم وهو ابن إحدى عشرة سنة .. وفتحت له بذلك الأبواب في وجهه لينتقل الى طور جديد في سلم تكوينه .

فاختلف في حلقات العلم بمسجد عقبة بن نافع ببلدته . وكان ذلك مما أثلج صدر الوالد وهو يرى نجله الوحيد يشب من درجة الى أخرى على نهج العلم ليرتقي عبر دروبه الى مرتبة الجلوس بين يدي كبار علماء القرية ينتفع بأخلاقهم وبعلمهم واذا كان الوالد لم تسعفه ظروفه الخاصة بأن يأخذ حظه من نعمة العلم ، فان الولد كان على العكس من ذلك ، فقد وفرت له الظروف معظم الشروط اللازمة لينهل من معين المعرفة ما شاء له وطاب ..

واذن فليض كل في طريقه ، فيتفرغ الأب الى جانب إخوانه وبني إخوانه الى التعامل مع الأرض يفلحون تربتها ويطلبون أسباب الرزق الحلال من طلع نخيلها وحب حصيدها ، ويتفرغ الابن الى ما خلق له - فيما يظهر - من أسباب الطلب والتحصيل .

ولم يلبث التلميذ الصبي أن كبر وكبرت معه اهتماماته بهذا المسعى النبيل الذي فتح عينيه على أفق الحياة فوجد نفسه على دروبه وطفق يتذوق بعض ثمارها ، ويتشوف بعضها الآخر وهو يرتسم على صفحات الأفق من بعيد .. فدفعه ذلك الى مضاعفة الجهد في طلب المزيد من مناهل العلم لإشباع نهمه من رياضه الخصبة اليانعة ، فعكف على ملازمة مجالس شيوخ قريته التي كانت - كبعض قرى أخرى مبثوثة في غير ما موضع من الوطن - مركز علم يتوافد على مجالس العلم بأروقة مسجدها العامر من جهات عديدة من البلاد ، طلاب القرآن الكريم والعلم الشريف ..

وقد أخذ الفقيد معارفه جميعاً ببلدته وعلى أساتذتها ، ولم يطلب العلم في غيرها ، وما درس

في معهد وطني بداخل البلاد ولا جامعة بخارجها . وإنما يعود الفضل في نبوغه ، فيما نبغ فيه – بعد هداية الله وتوفيقه له ، وبعد طول مصاحبته لشيوخه – الى جهوده الذاتية ومطالعاته الخاصة ، مثله في ذلك مثل جميع العصاميين ...

شيوخه : وقد أخذ عن شيوخ كثيرين يأتي في مقدمتهم :

1 – الشيخ البشير الإبراهيمي العقبي (ت 1929) : وكان هذا العالم – رحمه الله – يرابط بمسجد سيدي عقبة ، وظل بالرغم من فقدانه نور بصره يتصدر مجالس الإفتاء والتدريس مدة ما يقرب من نصف قرن ، وتخرج على يديه كثير من طلبة العلم . وكان شيخنا حينما يذكر في مجلسه شيخه هذا ، يثني عليه ويقول عنه «إنه كان شيخ مشائخ الصحراء والأوراس والحضنة» .

2 – الشيخ الصادق بلهادي (1869 – 1939) : وكان رحمه الله يجمع ما بين القضاء والإمامة والأستاذية . وكان شيخنا ما ينفك يشيد بما أفاد من حسن رعايته وواسع علمه . ولهذا الشيخ الأديب الشاعر بعض الآثار العلمية والأدبية التي سمعنا عنها ولم تسعفنا الظروف بأكثر من ملامحه بعض الشذرات منها من أيدي بعض من يبخل بها ويصر على إبقائها رهينة في دهاليز العتمة تصارع عوامل الظلام والنسيان دون أن يسمح لها بأن ترى النور أو تستنشق بعض نسيم الحياة ، شأنها في ذلك شأن أعمال كثيرة من تراث أعلامنا ، تكاد أن تفتك بها عوامل الضياع ؛ فلا قام بنشرها أولئك الذين يستولون على كنوزها ، ولا هم أخلوا سبيلها لتأخذ طريقها الى أيدي أصحاب الاختصاص والباحثين للقيام بمعالجتها خدمة لتراث الأمة وإغناء لحركتها الفكرية والأدبية المعاصرة !.

3 – الشيخ محمد بن منصور العقبي (1882 – 1951) : وكان هذا العالم – رحمه الله – ملازماً لمسجد القرية ناشراً العلم والإصلاح بين أهلها ، ثم انتقل في الثلاثينات الى مدينة (برج أم نائل) ولاية بومرداس فأصبح الخطيب المدرس بمسجدها . وتدرج في معارج العلم والإصلاح والأدب حتى صار عضواً في المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وكاتباً وشاعراً بالمدرسة الصحفية (البصائر) وكان بذلك واحداً من أعلام الأمة العاملين ومن رجالاتها الصالحين الذين أفنوا أعمارهم يزرعون في نفوس أبناء هذه الأمة حب العلم والفضيلة ، وينشرون على طريق نهضتها معالم المعرفة ومنارات الهدى ، ويحدون بسديد الرأي وصالح الأعمال وصادق التضحيات حركة جهادها على درب الكرامة والحرية والأصالة ...

4 – الشيخ الطيب العقبي (1896 – 1960) : وقد عاد هذا الداعية الإسلامي الكبير 1920 الى

أرض الوطن من البقاع المقدسة بالحجاز ، واستقر بمدينة بسكرة بجوار مسقط رأسه (سيدي عقبة) وهناك شرع في ارساء اللبنات الأولى لمشروعه الإصلاحي عن طريق التفرغ للتدريس واصدار الصحف ..

وقد عرفت بسكرة على أيامه نهضة فكرية وإصلاحية مشهودة فقد اجتمع حوله في المدينة في هذه الفترة (العشرينات) كوكبة من علماء وأدباء البلاد نذكر من بينهم : شاعر الجزائر ولسان نهضتها الحديثة الشيخ محمد العيد آل خليفة (1904 – 1979) والكاتب الشاعر حمزة بوكوشة (المتوفي 1995) والشاعر الأديب محمد الهادي السنوسي (1900 – 1974) والشاعر الكاتب محمد السعيد الزاهري (1897 – 1956) رحمهم الله .

وكان الفقيد واحداً ممن أفادوا من علم الشيخ الطيب العقبي من خلال الحلقات التي كان يعقدها بمسجد (بكار) ببسكرة لتدريس التفسير وعلم البلاغة خاصة ويظهر أن الشيخ العقبي قد شعر بأن المنطقة لم تعد تسع وجوه نشاطه الاصلاحي فدفعه ذلك الى الانتقال الى الجزائر العاصمة ، وبها واصل حركته العلمية والفكرية على رأس (نادي الترقي) و(الجمعية الخيرية الإسلامية) والإشراف على نشاطات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بوسط البلاد ، فكان – رحمه الله – بهذه المهام الوطنية العلمية والاصلاحية ثالث ثلاثة ممن كانوا على رأس الحركة الاصلاحية والنهضة الوطنية الى جانب أخويه في الجهاد : الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجناح الشرقي للبلاد (قسنطينة) والشيخ محمد البشير الابراهيمي في جناحها الغربي (بتلمسان) .

منهجه في التحصيل العلمي :

وقد ظل المرحوم حريصاً على الصحبة لكل من ذكرنا من شيوخه الى أن اختار الله من اختار منهم الى جواره : الشيخ البشير (1929) والشيخ الصادق (1939) وغادر البلدة من غادرها منهم ليواصل نشاطه التعليمي والاصلاحي في ناحية أخرى من أنحاء الوطن كالشيخ الطيب العقبي (الجزائر العاصمة) والشيخ محمد بن منصور (برج أم نائل) رحمهم الله جميعاً ، واذا كانت صلته بالعلم عن طريق هؤلاء قد انقطعت بانتقالهم الى رحمة الله فان رحلته في الطلب لم تنته من بعدهم ، وظل يمتطي صهوتها : معلماً ومتعلماً الى أن حصلت له ملكة العلم ونبغ في كثير من فروعه : فكان حافظاً للقرآن الكريم دارساً ومفسراً له ، بارعاً في علوم الحديث متمرساً بمصطلحه ، متضلعاً في بحوث العقيدة وأحكام الشريعة عمومها وخصوصها ، متبحراً في علوم

العربية نحوها وبلاغتها وآدابها ، ملما بمناحي الفكر الإسلامي مدارسه ومذاهبه ، واسع الاطلاع على مختلف أحقاب التاريخ العربي الإسلامي قديمه وحديثه .

وان المتأمل في نوعية ومنهجية محصوله العلمي يدرك أنه كان يجمع في ذلك ما بين الإفادة من أثار القدامى ، وبين حسن الإلمام والمواكبة لما تجود به قرائح المحدثين في كثير من جوانب المعرفة الإنسانية .

وقد ساعده على بلوغ هذه المرتبة العلمية جملة من المؤهلات الذاتية والعوامل الموضوعية نذكر من بينها :

1 - **الموهبة :** وهي ما يمكن أن يرمز إليه أو الى بعضه من خلال الإشارة العامة الواردة في الحديث الشريف «... كل ميسر لما خلق له» أو ما يمكن أن يعبر عنه بلغة علم النفس بالميول والاستعدادات الفطرية التي ليس لصاحبها يد في كسبها والتي من شأنها أن تساعده في توجيه قدراته الفكرية والشعورية الى ما يلائمها من نشاطات علمية وعملية .. وهي هبة من العناية الإلهية تمنحها اياه كما تمنحه شكل ولون صورته الخلقية ، وكان الفقيد يتمتع بموهبة متميزة في طلب العلم والاجتهاد في فهم مسائله ، وهي لا تقوم عنده على امتدادات وراثية موصولة بأصوله الأسرية ، إذ لم يعرف في علمنا من بين أقاربه المعاصرين من تفرغ للعلم والاشتغال به ، وكان أقرب الناس إليه وهو والده رجلاً فلاحاً بعيداً كل البعد عما خلص إليه ولده وأوقف عليه نفسه من ألوان الاهتمام .

وكان ينهض بمطالب هذه النفس الكبيرة ، جسم نحيف ، شديد النحافة ، ذو قامة قصيرة ، غير أن الله تبارك وتعالى عوض صاحبه عن ذلك قوة روحية ملوحظة : ولعل هذه المفارقة الواضحة بين طرفي هذه المعادلة في مقومات شخصيته ، حيث يبرز في احدى طرفيها الضعف المادي ، ويغلب في طرفها الثاني التكامل الروحي ، لعل في هذه الغلبة لهذه المؤهلات المعنوية على غيرها ما سمح للفقيد بتوجيه قدراته الى ما يلائمها من جوانب الطلب والتحصيل .

2 - **البلغة :** وهي ما يعبر عنه في لغة العصر بالإمكانات المادية ، وقد كان الشيخ من هذه الناحية ميسور الحال في سعة من العيش ، يحمد الله على أفضاله ، فقد رزقه في كل من المغير ، وسيدي عقبة بعض بساتين التخيل وحقول الزرع ، وهي بعض ما انجر إليه من والده الذي لم يخلف من الأعقاب غيره .

وقد أغنته هذه الأرزاق ، الى جانب خاصية الزهد المتأصلة في خلقه ، على أن يطلب

المزيد من متاع الدنيا ، كما ساعدته من نحو آخر على التفرغ للعلم ، فلم يشتغل في حياته بما سوى الطلب والتحصيل ، ولم يعرف عنه أنه باشر إدارة أملاكه ، أو تحمس الى تطويرها وتنميتها ، وإنما كان يقوم بأمرها بعض أقاربه ، قانعاً بما يلمون له من عائداتها ..

3 – **الصحبة :** وتعني في مصطلح التحصيل مصاحبة العلماء وملازمة مجالسهم ، والحرص على الاغتراف من مناهل عرفانهم ، وهي من الشروط الضرورية المنصوص على وجوب توفرها في مطالب العلم . وكان الفقيد طوال حياته حريصاً على هذه الصحبة . راغباً فيها ، متعلقاً بها ، صحبة الأستاذ ، وصحبة نتاج الأستاذ (الكاتب) . ومما يحسن ذكره بهذا الصدد أن أستاذه الشيخ البشير كان قد غادر القرية الى بسكرة ذات شتاء فأبى إلا أن يصاحبه في هذه الرحلة ، وظل ملازماً له حتى عاد الى البلدة فعاد برفقته ..

4 – **الزمن :** إن الاستغراق الزمني في التحصيل والمثابرة على الطلب ، وحسن استثمار الوقت ، كل ذلك من العوامل الأساسية في ترشيد العمل الإنساني وتحسين مستوى مردوديته . وكان الفيد من هذا الجانب قد استغرق معظم ، بل جميع مراحل عمره في الاعتكاف على البحث والقراءة ، وكان الكتاب أنيسه أينما حل وأينما ارتحل .. وما كنت تلقاه حيث تلقاه إلا والكتاب بيمينه ، فقد كان من أبرز المترددين على دور الكتب والملازمين لها ، فأنت ان سألت عنه في إقامته وجدته في غرفة مكتبته ، وإن بحثت عنه في خارج منزله فإنك واجده بإحدى مكتبات المدينة ، وقد كان له في كل بلدة استقر بها ، أو حام حولها صلة دائمة بواحدة أو اثنتين من مكتباتها ..

ويصعب على من خبر شغف الشيخ باقتناء الكتب وحرصه على كسبها – وهي أغلا سلعة من سلع الدنيا عنده – أن يسترسل في هذا الحديث دون أن يشير ولو بكلمة عابرة الى خزانة كتبه .

مكتبته الخاصة :

تزخر مكتبه بذخائر الكتب ونفائس المخطوطات وتتوزع بين موطنه الأصلي سيدي عقبة ، وبين إقامته أثناء الثورة بالجزائر العاصمة ، ومستقره في آخر حياته بالمغير . إلا أن قسماً كبيراً من كنوزها قد ضاع في جملة ما ضاع لمعظم الجزائريين أثناء الثورة المظفرة من وثائق وتراث ، من جراء الحملات الارهابية التي كان يفاجئ بها عساكر الاحتلال الفرنسي الأهالي ،

فيقتحمون عليهم ديارهم في أية ساعة يشاؤون من الليل أو من النهار ، فينزلون على الأبرياء بالقمع والتعذيب ، وعلى البيوت بالسلب والنهب والاتلاف .. فهذا واحد من الأسباب التي ضاع بموجبها جزء كبير من خزانة الفقيد ، يضاف الى ذلك ما عرف به الشيخ من نحو آخر ، من فرط التكرم على غير عادة معظم علماء البلاد بفتح أبواب مكتبته في وجه كل زائر يحل بناديه من الطلبة والباحثين .. وقد جبل رحمه الله على طبع لا يسعفه بأن يحول بين رواد مكتبته وبين مبتغاهم منها . غير أن بعضاً من هؤلاء كان بمجرد ما يظفر بمطلبه من خزانة كتبه يدير ظهره لها ، ولم يعد يولي وجهه شطرها منذ أن قضي منها وطره .. وإن الحياء من جهة ، والزهد من جهة ثانية ، وهما سجيتان من أبرز ملامح شخصية الشيخ كانا يمنعانه من مشافهة من تجمعه المصادقة به ممن استعاروا منه كتبه بإرجاعها له ، فهم قد أصروا في قرارة أنفسهم على الفوز بها كغنيمة . وهو من جهته لا يجرؤ على السعي في استرجاعها .. وبين هذا الموقف وذاك ضاعت معظم كنوز خزانته .

ثانياً : مساهمته في حقل التربية والتعليم :

استطاع الفقيد بما بلغه في سن مبكرة من أسباب التدرج في مرافقي العلم أن يتصدى للتدريس الى جانب أستاذه الشيخ الصادق بلهادي ، وهو ما يزال شاباً يافعاً في مقتبل العمر ، واستمر ناهضاً بهذا المشروع في أغلب مراحل حياته ، وكان يجمع فيه بين الارشاد والتثقيف الديني للعامة ، وبين حلقات نظامية يخص بها بعض الطلبة يدرسهم فيها علوم العقيدة والشريعة وعلوم اللغة ، والمنطق والأدب والتاريخ وغيرها .. ويمكن للباحث أن يلحظ في منهجيته التعليمية المزاوجة بين الطريقة القديمة والطريقة الحديثة ، فهو يأخذ طلبته بالطريقة الأولى فيطالبهم بحفظ مادة الدرس من المتن المقرر مسبقا ، ثم يأتي دوره فيقوم بشرح موضوع الدرس من مطالعاته الخاصة في أكثر من شرح ، وعند فراغه من ذلك يطلب من تلاميذه فتح الشرح المعتمد في تلك المادة ، ويقوم بعضهم بقراءة كلام مصنفه في الدرس المعالج .. ويتخلل ذلك بين الفينة والأخرى تدخل الشيخ ليعقب على كلام الشارح في هذه القضية ، أو يعمق فهم الطلبة بمذهبه في قضية أخرى ..

وأما الطريقة الحديثة فتقوم عنده على اعتماد عصرية في مختلف مواد المنهاج ، وتتلخص في افتتاح الجلسة بكلمة يقدم فيها الشيخ لموضوع الدرس ، ثم يحيل الكلمة لكوكبة من الطلبة

فيتـداولون على قراءة النص موضوع الـدرس ، ثم يشرع الشيخ في تحليـل مسـائلـه والتمثيـل لهـا والتدليل عليها ، وتختم الجلسة بمطالبـة التلاميـذ بـالقيـام ببعض التمارين في القضـايـا العلميـة ، وبقراءة نصوص أدبية مختارة واتخاذها مجالاً لبعض التطبيقات حول بعض القواعد اللغوية ..

ولعل من المناسب أن نختم هذه الفقرة بأبيات من قصيدة لشاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة رحمه الله قرظ بها كتاب الشيخ المسمى (عقبـة بن نـافع القـائـد المظفر) مـا يزال مخطوطـاً منـذ 1952 .

ويشيـد فيهـا - والعلم والفضـل لا يعرف قيمتها إلا أهـل العلم والفضـل - بـالمكانـة العلميـة المرسومة للفقيد ..

يقول الشاعر :

للّــــــه درك بـــــــاحثــــــاً	في بحثــــــه ومــــؤرخــــــاً مبروراً
ألفت أطراف البحـــــوث كأنهــــــا	في السلــــك تنظم لــؤلــؤ منثـــوراً
وجمعت من أنبــاء (عقبــــة) بــــاقـــة	نضراء عـــــابقـــــة ترف زهـــوراً
قـــدمتهـــا للشعب منـــك هـــديـــة	حسنـــــــاء فكاد يطير بهـــــا سروراً
فعليــك منـــه تحيـــة مرمـــوقـــة	بـــالشكر مــا تلت الـــدهــور دهــوراً[1]

ثالثاً : نشاطه في الميدان الاجتماعي :

كان الشعب الجـزائري وهـو يرسف في أغـلال القيـود ويعــاني من جـور حكام الاحتــلال الفرنسي وظلم إدارته يأبى أن يبوح بأسرار بيته الى تلك السلطة الغاشمة ، وإنما كان يفر بهـا الى أصحاب الرأي وأهل العلم من رجالات الأمة فيعرض عليهم مـا أشكل عليـه من الأمور ويلتمس لها منهم الحلول ، وكان هؤلاء وهم ضمير الأمة يدركون أكثر من غيرهم عمق المـأسـاة التي يصطلى بنـارهـا الجميع ، فكانـوا لـذلـك يخصصـون جـزءاً كبيراً من نشـاطهم للتغلغـل في أوسـاط المجتمـع والاندماج في قضاياه والتحسس لانشغالاتـه .. وعلى هـذا الطريق كان الفقيـد يقوم الى جـانب تفرغه للنهوض بأعباء العلم وتكاليفه - بنشاط حثيث في الحفل الاجتماعي - فيعمل على تعضيد أواصر الأخـوة والمحبـة والتعـاون بين أفراد المجتمـع ، ويسعى في قضـاء حـوائجهم ، ويصلـح ذات بينهم . فعرف بهـذه المسـاعي بين سكان المنطقـة التي تغطي مجموعـة من الـولايـات من بينهـا : بسكرة ، باتنة ، الوادي ، وغيرهـا .. فكان الأهـالي يهرعون إليـه من هـذه النواحي ، وأحيـانـاً

ينتقل هو إليهم ، الى بواديهم وقراهم وأحيائهم ليفصل فيما يكون قد اختلفت بينهم السبل حوله من نوازل في عين المكان .

ويساعده في النهوض بهذه المهمة الإنسانية النبيلة جملة من المؤهلات يأتي على رأسها : ما أنعم الله عليه به من حكمة ونزاهة وميل الى طريق العدل والاحسان ، وما اتصف به من تمرس بأحكام الشريعة الإسلامية : أصولها وفروعها ، وما يتحلى به من قدرة على استنباط الحلول الملائمة للمشكلات المعضلة ، وما يمتاز به من معرفة بما يصل بين القبائل والأعراش من أنساب وأرحام ، وما يتحكم في علاقاتها من عوائد وأعراف ، وأخيراً : كرم فياض يحمله على البذل من ماله أحياناً ، اذا احتد الخلاف بين الأطراف المتنازعة وتباينت مطالبهم ، ورأى أن ذلك يعيد الاطمئنان الى النفوس ويمكن لأسباب الصلح فكان في هذه الحال يسرع الى الدفع من ماله بسخاء ، ويفض بذلك عقدة الخصام ، ولا يهدأ له بال ، ولا يستقر به المجلس حتى يرى المتنازعين من حوله وهم يتصافحون ويتعانقون ، ثم يؤوبون الى مواطنهم ونفوسهم راضية مطمئنة ، كما كان من نحو آخر ملاذ المدينين وكعبة المحتاجين ، وملجأ المستغيثين ، فكان يدفع على المدينين مغارمهم ، ويخفف على المعوزين أعباءهم ، ويشاطر المحرومين همومهم ، وكان بيته مقصداً لكل عابر سبيل يحط رحاله بالبلدة فيجد فيه الطعام والمأوى والإحسان ...

رابعاً : جهاده في الحقل الوطني :

كان الفقد منذ شبابه وهو يسهم بمختلف نشاطاته في النهوض بالواقع الوطني : قياماً برسالة التدريس وإسهاماً في الاصلاح الاجتماعي ، ومناصرة للقضية الوطنية ، ولكن من دون أن يتعصب لهذه الجهة أو تلك ، أو يظاهر هذا الطرف على الطرف الآخر ، ما دامت جهود الجميع تصب في مجرى الحقوق الوطنية وأحداث القضية المصيرية ، ويساعده في ذلك ما تقوم عليه شخصيته من ميل الى استقلالية بارزة في الفكر وفي العمل ، ونفور واضح من التحزب والتعصب ، ورغبة كبيرة في التمكين لمبدإ الحرية الفردية في حدود احترام العلاقات الاجتماعية والمصلحة الوطنية ، مما أهله للقيام بواجباته الوطنية ومحافظته في الوقت نفسه على حياده وشموله الجميع بحبه وإحسانه .. وإن أنت حاولت أن تضع يدك على بعض ميوله السياسية فستنتهي بك المحاولة الى أن الفقيد لم يكن منضوياً تحت لواء حزب من الأحزاب ، كما لم يكن منضماً الانضمام الرسمي الى الحركة الاصلاحية ، ولم يكن في الوقت ذاته مناهضاً لها ولغيرها ،

ولعل مرد هذه التركيبة في توجهه السياسي الى طبيعة مقومات شخصيته الفطرية من نحو ، وعوامل مكتسباته الفكرية من نحو آخر ، فقد عرف عنه منذ صباه ميله الى الاعتدال والوسطية والرغبة عن الغلو والتطرف من جهة ، كما تتلمذ من جهة ثانية ، على شيوخ تضاربت أهواؤهم بين الاصلاح ونقيضه ، فكان منهم الداعية المصلح (الشيخ الطيب العقبي) وكان منهم المتشيع لبعض الطرق (العلوية) الشيخ الصادق بلهادي .

ولاشك أن يكون الفقيد بوقوعه تحت مفعول هذه المؤثرات المختلفة قد خضع لنوع من الصراع النفسي بين هذين التيارين المتقابلين ، غير أن الغلبة في النهاية كانت - فيما يبدو - للمقومات الفطرية في تكوين شخصيته على غيرها فعملت على توجيهه في فكره وفي نشاطه العملي والعلمي هذه الوجهة الرصينة المسألة الملائمة لميوله والمعبرة عن ملامح شخصيته .

وظل وفيا لهذا المنهج فواصل نشاطه على دربه الى أن نجح الشعب في جمع أشتات شمله وتوحيد كلمته وتفجير ثورته الخالدة ليلة الفاتح من نوفمبر 1954 . فكان الفقيد من أوائل المستجيبين لنداءات هذه الثورة ، ومن الواقفين الى جانبها بالدعم المعنوي والمادي ، يحض المواطنين على احتضانها ، ويجمع الأموال لفائدتها ، ويأوي في داره المجاهدين والمسبلين فاكتشفت قوة الاحتلال نشاطه هذا فحاولت إيقافه فلم تفلح ، وكان الشيخ قد التجأ الى بادية (أولاد جلال) فقام الأهالي هناك بإيوائه والإشراف على شؤونه ، الى أن استطاعت مصالح الثورة أن تصدر له من الجهات الإدارية المختصة بطاقة (هوية) ورخصة سفر باسم مستعار (محمد رزق الله) ثم قامت تلك المصالح من بعد بتوفير الأسباب لانتقاله الى الجزائر العاصمة في غضون سنة 1957 ، وكانت هذه هي أول مرة يزور فيها العاصمة في حياته ، وأول مرة يخرج فيها من حدود منطقة الجنوب وينزل - اضطرارياً - ضيفاً على إقليم الشمال ، فقد أصبح من سكان العاصمة على كل حال ... ولكن في أي حي حط الشيخ رحاله ؟ وما هو الشارع الذي تشرف بالنزول في دار من دوره ؟ إن من يعرف العاصمة يؤمئذ ، ويعرف تركيبتها الاجتماعية يدرك أن حظ أبنائها مما تزد هي به - وهي البهجة - من أحيائها الفخمة وشوارعها الفسيحة ، ورياضها الغناء وحقولها الخصبة ، وشواطئها الجميلة ، ليس أكثر من حظ المحروم ، المغتصبة أرضه يرى خيراتها ولا يكاد يناله منها أدنى شيء .. وقد كانت جميع مظاهر هذا العمران - أيام الاحتلال - حكراً على الأجانب من كل عرق ، وحجراً محجوراً على الجزائريين ، جميع الجزائريين فهؤلاء - وهم أهل البلاد - لايسمح لهم بالاستيطان إلا في الأحياء العتيقة وفي

أطراف المدينة فوق التلال الجرداء ، وعلى جنبات الأودية (كالقصبة ، وبلكور ، والمدنية ، وبجانب وادي الحراش ، ووادي بوزريعة ، ووادي قريش) .. وما يتصل بهذه الأحياء وما يتفرع عنها من زنق وحارات .

أما الأحياء الجديدة الجميلة بأعالي العاصمة ووسطها ، وعلى امتداد شواطئها الخلابة ، حيث القصور المنيفة والمحلات الفاخرة والمتنزهات البديعة والمراكز التجارية والورشات الصناعية ، فذلك كله مما يحتكر الانتفاع بخيراته والاستمتاع بملذاته المستوطنون الأجانب - ولا أقول كما يقول أغلبنا المعمرين - وحدهم دون سواهم .

وهكذا كانت عاصمة البلاد تحت الهيمنة الفرنسية يضيق صدرها- وهي الأم الرؤوم على كل حال - باحتضان أبنائها الذين فتحوا أبصارهم على نور الحياة فوق أرضها والذين كانوا يتوافدون عليها فارين من الموت ، زرافات ووحداناً ، قادمين من مختلف أطراف البلاد .. من أريافها وقراها وجبالها ، علهم يجدون بها ما يحتمون به من جحيم عساكر فرنسا الذين أضرموا نار الإرهاب والجور في جميع أرجاء التراب الوطني ، وكانت تلك النار أشد ما تكون سعيراً بالبوادي والأرياف !. وأين اذن - والحال هذه - يكون ركب الرحلة قد وقف بالشيخ المطارد ؟ إنه لم ينزل بعمارة عامرة ، ولا بدار فاخرة ، وإنما آواه إليه أحد الفنادق ، وهو(فندق قصر الشتاء) المعروف باسم (نزل ابن الحفاف) الرابض بين يدي مسجد (كتشاوة) بساحة الشهداء .. وكان من نصيبه به غرفة صغيرة جداً بالطابق الثالث ، وبالرغم من صغر مساحة هذه البيت فقد اتخذ منها الى جانب وظيفتها الأساسية وهي إيواؤه - حجرة للتدريس ومكتبة للمطالعة وقاعة الاجتماعات .. وبها واصل بالرغم من قسوة الأوضاع وعسر الأهوال نشاطه الوطني والاجتماعي والتعليمي ..

وإن كثيراً من نزلاء هذا الفندق - والكاتب واحد منهم - كانوا ملاحقين من طرف الاحتلال وكانت قصصهم شبيهة بقصة الشيخ في أحداثها وملابساتها ، فاتخذوا لذلك من هذا النزل في تلك الأيام العصيبة العسيرة ملجأ استطاعوا أن يدفنوا بين جدرانه رؤوسهم بعض الوقت دون أن تستطيع سلطات الاحتلال أن تكشف أمرهم . ولا يعني هذا أن عين العدو كانت نائمة ، وإنما كانت تتربص بكل الجزائريين وتترصد حركاتهم ، وتتحسس كل ما يمكن أن ينهض به أي واحد منهم من نشاط وطني ، فجميعهم في منطق المحتل ثوار ومجاهدون .. وفي الجهة المقابلة كانت التعبئة أشد .. وكانت اليقظة والفاعلية والشعور بالمسؤولية من أهم ما

تنطوي عليه نفوس معظم الجزائريين من صفات ، ومن أبرز ما ينبثق عنه سلوكهم من مواقف في تلك الحقبة المجيدة من أحقاب التاريخ الوطني .. وبحكم هذه الظروف المتوترة كان الفندق كغيره من المراكز والمقرات والمحلات التابعة للأهالي تحت الرقابة الدائمة من طرف قوات الاحتلال التي تربض عند أقدامه ، وتحف به من كل الجهات المحيطة به ليلاً ونهاراً .. وكان يتعرض بين الحين والآخر الى حملات تفتيش إرهابية يفزع بها في ضقيع الليل عساكر العدو النزلاء العزل وهم نائمون فيخضعون الى اجراءات تعسفية غاشمة .. وكم من مرة كان هؤلاء (الانسانيون) ينزلون (ضيوفاً) بغسق الليل على أهالي الفندق فيؤثرونهم إرهاقاً وظلماً ، ثم يأبون أن يغادروهم حتى يأخذوا بصحبتهم منهم بعض النزلاء ، بهدف رد الجميل لهم بقضائهم ليالي وأياماً في ضيافتهم (يستمتعون) خلالها ببرنامج (نزهة جميلة) تحت أنغام الاستنطاق في رياض (التعذيب) !. وكانت هذه الظروف العصيبة يومئذ تفرض على كل جزائري حرّ أن تكون حركته محسوبة وبدقة متناهية ، حتى يفوت الفرصة على العدو ..

وفيما يخص الشيخ فقد حامت حوله الشكوك أكثر من مرة ، وحدث أن أوقفه جند الاحتلال وحده في إحدى حملاتهم المتكررة على النزل ذات ليلة من سنة 1960 واقتادوه الى السجن ، وامتعوه هذه المرة من دون غيره (بنزهة خاصة) من نزهات الجلادين .. ولكن الله ختم على قلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة ، وأسدل عليه استاره وأنجاه من مكرهم فخلوا سبيله من دون أن يتمكنوا من الوقوف على حقيقة أمره ، فعاد الى غرفته بالفندق ، وباشر نشاطه كالمعهود .

وظل على هذه السيرة .. ومضت السنون تشق طريقها في أخاديد الدهر من حوله ، كئيبة ثقيلة بما تضطرب به من أهوال حرب ، ومعاناة شعب ، وبما كانت تجود به على النفس المرهفة من تاريخ الغربة والنوى ، غربة عن الولد والأهل والأحباب .. فالفكر منشغل ، والقلب معتمل بحاضر الوطن وبمستقبله .. وبمصير أطفال صغار تركهم وراءه وهناك في القرية .. يأخذ بهم الشوق والحنين مأخذهما الى لقاء أب حنون كريم ، أخرجته يد البطش ذات ليلة من داره فذهب ولم يعد .. وأم بنين موزعة قواها النفسية والجسدية بين التفكير في توقعات الغيب المجهولة ، وبين الحرص على النهوض بتبعات تربية الأولاد ، ورعاية شؤون البيت ، وبين معاناة فراق زوج طال غيابه وطال انتظاره .. وأخيراً التفكير في مصير الأملاك التي أفنى الأباء والأجداد أعمارهم في غرس أشجارها وزرع حقولها شبراً شبراً ، ولكن اليوم وضعها غامض

ومصيرها مجهول .! إن كل هذه الخواطر تعمل عملها - ولاشك - في النفس الإنسانية ولكن النفس المؤمنة تختلج بأعماقها تلك المشاعر دون أن تقوى على النيل من عزيمتها ، فتظل قوية الإيمان ، شديدة التفاؤل بدنو ساعة الخلاص ، وإن طال الأمد واكفهرت الأجواء ، وسيكون ذلك - بحول الله - قريباً ، وما من أزمة تشتد إلا ويعقبها - بإذن الله - الفرج ... وذات يوم من أيام الله الخالدات أشرقت الشمس بوعد ربها الذي وعد به عباده المؤمنين المجاهدين ... فقهر الشعب المجاهد أعداءه وافتك منهم حريته وطردهم من البلاد صاغرين . وكان ذلك اليوم يوماً عظيماً مشهوداً . وحينئذ حانت ساعة العودة الى الديار ، فرجع الشيخ المطارد الى مسقط رأسه (سيدي عقبة) كما رجعت البلابل المنفية الى أوكارها .. واستقبله الأهل والخلان وجميع السكان ببالغ التأثر وكامل الحفاوة .. ومضى كل في غمرة هذا اللقاء يطفي لهيب الشوق الى الآخر .. وإنه لشوق عظيم غرسته في النفس وعمقت جذوره بأغوارها حتى اشتد واستوى على سوقه ، عذابات فراق أرخى سدوله على واقع الناس طوال سنوات عديدة .. ولكن انفعال المشاعر الفياضة بنشوة النصر لم يكن من نصيب هذا أو ذاك فحسب ، وإنما كان قد مس شغاف قلوب كل الجزائريين الأحرار أينما كانوا داخل الوطن وخارجه من جراء ما اجتمع من الثمل والتأم من الجراح ، وارتفع من الظلم .. وتلك نعمة كبرى أنعم الله بها على أهل الجزائر فأخرجهم من ظلمات الاحتلال الى أنوار الاستقلال ورزقهم بنعمة الظفر والعزة والسيادة بعد سنوات من الابتلاء والصبر والجهاد ..

وحط الشيخ عصا الترحال ببلدته وركن الى زاوية في بيته يلملم أشتات فكره ويستعيد شريط الذكريات ، ويحاول أن يجمع قواه لاستئناف نشاطه غير أن سكان القرية الذين افتقدوه زمناً طويلاً ، واشتاقوا الى السماع منه والإفادة من دورسه والانتفاع بمواعظه لم يمهلوه حتى يسترجع كامل قواه ، وانما سارعوا الى دعوته للقيام بالخطابة والافتاء بالمسجد ، فلم يجد مندوحة من الاستجابة لهذا المطلب في هذا الظرف الاستثنائي ، وكانت هذه هي أول مرة في حياته يلج فيها باب الوظيف الرسمي ، وقد كان ذلك - على أية حال - في ظل السيادة الوطنية .. ولكن النفس الإنسانية قد تخرج على المألوف لديها حيناً من الدهر ، غير أن الحنين الى ذلك قد يعاودها من جديد ولو بعد زمن طويل ..

ولعل لهذا السبب ، ولنفوره منذ نشأته من كل وظيفة لم يلبث الشيخ أن طلب وألح في الطلب أن يعفى من ذلك الوظيف ، وحاولت الجهات المختصة أن تماطل في الاستجابة ، فلعل

الشيخ يتراجع في موقفه .. غير أن ذلك لم يحدث ، وانما الذي لم ينقطع أبداً هو الاستمرار في الطلب والالحاح فيه ، فما كان من الدوائر المسؤولة - أمام ذلك - إلا أن قامت بتزكية رغبة الشيخ .. وتفرغ حينئذ لما شب وشاب عليه من حرصه على عدم إلزام نفسه بأية إلتزامات رسمية من جهة ، والاعتكاف من جهة أخرى على القراءة والبحث ، وإحكام الصلة بينه وبين طلبة العلم والباحثين ، والاستمرار في مواصلة إسهامه في الحقل الاجتماعي .

خامساً : نهاية النهاية :

لم يلبث الفقيد أن تحرر من قيود الرسميات التي وجد نفسه في أعقاب الاستقلال ملزماً بشكلياتها ، وركن الى ساحة الطلب والتحصيل ، والنشاط العلمي ، ومضت سفينة الحياة من حوله مسرعة على هذه الوتيرة ، وما كان أحد يعلم ما تخبئ له الأيام في طياتها من مجهول .. غير أن الذي كانت تتلامح بوادره في الأفق ، أن شيئاً من الأشياء سيطرأ على مسيرة الشيخ ... وأن مرحلة جديدة من حياته قد آن أوانها : سيتقدم به العمر ، وستزحف على جسمه النحيل ، النحيف بعض العلل .

ويلازم ولده البكر (محمود) - ولعدة سنوات - الفراش تحت وطأة مرض عضال أوهن قواه وشل حركته وهو أب لعيال[2] ويغادره ولده الثاني والأخير (عقبة) الى خارج الوطن في رحلة يطلب فيها العلم ، ليستقر بعدها بالجزائر العاصمة موزعاً بين أعباء وظائفه العلمية ومهامه الادارية ، وبين مسؤولياته الأسرية والاجتماعية ..

وترحل عنه بغتة من شاركته بصدق ، وود ، ومعاناة رحلة العمر الطويلة ، المغفور لها حرمه الى مثواها الأخير .. وماذا بعد من حوادث الزمان ومحن الدهر ؟

أوليس المؤمن مبتلى ؟ أوليست تلك سنة الله في عباده المؤمنين ؟

وإذن فإن يد الابتلاء ستمضي في طريقها مصوبة سهامها بمزيد من الضربات نحو صدر الفقيد .. وتمتد هذه المرة لتطول رزقه ، فتنتزع منه - في خضم حملة مست وقت من الأوقات كثيراً من الجزائريين - أملاكه : حقول القمح والشعير ، وبساتين النخيل والرمان والأعناب ، المتربعة هذه وتلك على أرض (عقبة) المضمخة بدم الصحابة والتابعين - رضوان الله عنهم - تربتها . وبأرض (المغير) بوادي ريغ الطيبة تربته كطباع أهله الطيبين ، ويصبح الشيخ بين عشية وضحاها فاقداً معظم ما كان بين يديه مما عرفنا من ثروة ، وتصل بذلك رحلة المتاعب

الى أوجها أو تكاد .. وتنعكس على حياته تلك المؤثرات المختلفة - فتضعف قواه ويصيب الوهن جناحيه ، فيقل ترحاله كعادته بين قرى ومدن المنطقة ، وينقص احتكاكه بالناس ، وينفض مجلس تلاميذه من حوله ليواصل كل منهم جهاده في هذه الحياة بناحية من أنحاء الوطن .. وبالرغم مما يفترض أن يكون لهذه الابتلاءات المتعددة من تأثيرات سلبية على قوى الإنسان المعنوية ، فإن زائر الشيخ لا يكاد يلمح على قسمات وجهه شيئاً من آثار ذلك ، ولم يبح لأحد بشكواه ، وظل يصارع النوائب ، ويغالب العواصف ، راضياً بقدر الله محتسباً أجره عند الله .. ولم التبرم والقضاء قضاء الله ، والحكم حكمه ، ولا راد لقضاءه وحكمه ؟ ولم التحسر على ضياع حطام الدنيا ، وقد كانت تسعى بين يديه تطلب وصاله وهو راغب عنها ؟.

فالزهد والصبر والرضى من محامده ، والكرم والتعفف والقناعة من مناقبه ، مع استقلالية في الرأي ، وحرية في الفكر ، وتسامح - في المذهب ، وقد ساعدته هذه السجايا - وهي بعض أخلاق العلماء - على الصمود في وجه الأزمات والسمو فوق المتاعب ، وظل كذلك ثابتاً قوي الإيمان حتى أتاه اليقين ، فانتقل الى جوار ربه راضياً مرضياً ..

سادساً : آثاره :

لقد غادر الشيخ دنيا الناس مخلفاً وراءه مجموعة من الآثار المخطوطة في الفكر والتاريخ واللغة والأدب .. غير أنه بسط جناح زهده فلم يسع في نشرها ، وهو بقدر ما كان ولوعاً بالقراءة والمطالعة ، دؤوباً على البحث والتنقيب كان عزوفاً عن الكتابة والنشر ، وهو في الحقيقة لا ينفرد بهذا المنزع من بين كثير من الجزائريين الذين يكادون ، يعرفون من بين غيرهم ، بأنهم قوم لا يقرؤون كثيراً ولا يكتبون إلا قليلاً !. ويمكن للقارئ الكريم أن يلحظ من خلال ما عرف عن الشيخ أن الشطر الأول من هذه المقولة (لا يقرؤون كثيراً) لا ينطبق عليه .

وهب أنه كان غير زاهد في نشر نتاجه ، فهل كان في مقدوره أن ينشره وأزمة الطبع في بلادنا توشك أن تكون بلا مثيل لها في حدتها ؟ فأين أعمال رجالات الاصلاح والنهضة والوطنية في الفكر وفي السياسة والأدب على امتداد ما يقرب من قرن من الزمن (1890 - 1990 !؟) .

وإن تعجب فعجب أن ترى بعضنا - والمخازن بالنتاج المحلي متخمة - ينافس بعضنا حتى

يفوز هذا عن الآخر يطبع نتاج هذا أو ذاك من الكتاب ، مع رؤيتك للجميع وهم زاهدون في نشر آثار علمائنا وكتابنا ! أوليس هؤلاء بذلك يصنعون بتلك الآثار الفكرية صنيع أمثالهم بمنتوجات معاملنا ؟. فأولئك يتركون بنات الفكر ومعاناة الوجدان باركة في دهاليز مؤسسات النشر العامة والخاصة على اختلاف أسمائها وألوانها ، وهؤلاء يهملون منتوجات كد العقل وعرق السواعد عرضة لعوامل الفساد تحت رحمة برودة ، الأقبية في الورشات ، ورطوبة الأرصفة في الموانئ .. ويركض هؤلاء وأولئك وفي وقت واحد وبحماس متشابه وراء استيراد أعمال فكرية وبضائع مادية من خارج الحدود ! أليست هذه السلوكات من بين مسببات الأزمة الاقتصادية التي بلغت حداً مذهلاً في التأثير السلبي على الحياة الوطنية ؟..

وهل يستطيع أحدنا أن يذكركم من مرة هزت سمعة وسائل الاعلام المختلفة بأنباء في هذا الشأن تؤكد لديه هذه التصرفات اللامسؤولة ؟ ويظهر أن الدوافع الكامنة وراء مثل هذه السلوكات في كلتا الحالتين واحدة . وإذن فإن المشكل لا يكمن في زهد من زهد في نشر نتاجه ، وانما يجب البحث عنه في علل أخرى ..

إن معظم من تربطه أدنى صلة بعالم النشر وصناعة الكلمة يكون قد مر بهذه الظروف وعاش هذه الملابسات ، ويستطيع أن يدلي بشهادته عن تجربة في هذا المضار ، فيؤكد أن أعداداً هائلة من المخطوطات تبرك ولمدة سنوات في أقبية مخازن (المؤسسة الوطنية للكتاب) ولم تبرح مكانها طوال هذه المدة لتأخذ حقها في التعامل مع حركة الحياة والناس ! فمن المسؤول عن ذلك ؟ وأين تكمن المشكلة ؟ وما ذنب تلك الأعمال المجمدة منذ زمان ؟ بل ما ذنب أصحابها حتى يجبروا عن طريق التحجير على مؤلفاتهم ، على دفع ثمن الأكداس المكدسة من بعض الكتابات المحسوبة على الأدب والثقافة ، وما هي في حقيقتها كذلك ؟ ولعل ما تتخبط فيه هذه المؤسسة من أتعاب مالية ، إنما مرده الى غير قليل من تلك المؤلفات ؟ وآية ذلك تلكم الكمية الهائلة من المنشورات التي عرضت للبيع في صائفة 1992 بخمس سعرها الفعلي ، وتمثل تلك المطبوعات المشار إليها آنفاً جزءاً كبيراً منها ، ولذلك ظلت سوقها كاسدة بالرغم من بخس ثمنها ، وطول أمد عرضها ..

وليس الأمر بديوان المطبوعات الجامعية بأحسن حال من سابقته ، فقد أبدى هو الآخر عجزاً ملحوظاً أقعده لأسباب كثيرة على النهوض بالمهمة التي أنشئ من أجلها وهي - فيها يظهر - نشر أعمال الجامعيين ورسائلهم بالدرجة الأولى بهدف توفير الكتاب الجامعي للطلبة من

نحو ، وتسهيل سبل النشر أمام الباحثين من نحو ثان ، وتطوير برنامج البحث العلمي بوجه عام من نحو ثالث .

ولكن النتيجة مع كل هذه الاعتبارات المشروعة ، وبالنظر الى طموحاتنا والتزاماتنا الضرورية تظل جهود هذه المؤسسة دون المستوى المطلوب !

والوضعية هذه بهذه العلل أو بمعظمها تنسحب أو تكاد مع بعض الاستثناءات ، على أغلب دور النشر الخاصة ، هذه التي تظاهر بعضها في أول عهدها برفع شعارات براقة حرصت كل الحرص على تلميعها حتى تستهوي الأنظار ، وتستجيب للحاجة الظرفية لسوق الكتاب يومئذ ، ولكن الزمن وإن طالت آماده كشاف للحقائق ، ولذلك فلم يلبث أن مزق أستار ما كانت تتلفع به تلك المؤسسات من مصداقية زائفة ، وأظهرها على صورتها الحقيقية وهي تدير ظهرها لما كانت تتظاهر به في وقت من الأوقات وتمضي راكضة وراء الربح السريع !.

وتبقى هكذا المشكلة مطروحة بهذه الصورة على جميع المستويات والخاسر الوحيد هو الثقافة !. هو الوطن !..

ولعل إدراك الفقيد لهذه الحقائق المؤسفة التي تكتنف أزمة النشر في بلادنا قد زاد من درجة عزوفه عن الكتابة والنشر ، واختار طريقاً آخر مضى يبث من خلاله علمه في المجالس وفي صدور الرجال في أنحاء كثيرة من الوطن ، في الصحراء والأوراس وفي الجزائر العاصمة . فتخرج على يديه كثير من الطلبة . وهو في هذا الخيار لم يكن مبتدعاً ، وإنما نهج فيه منهج طبقته من علماء البلاد . وإن النموذج الأمثل الذي يحسن ذكره في هذا المقام هو الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله الذي يعد هذا الاتجاه من بين ثلاثة اتجاهات اشتهر بها : تفرغه للتدريس أولاً ، وتخصيصه دروساً للعامة وأخرى للخاصة ثانياً ، وعزوفه عن الوظيفة ثالثاً .. وفي هذه الخيارات الثلاثة يشبه الفقيد الإمام ..

ومهما يكن من تعقيدات النشر وجمود حركته ، فليتك يا شيخنا كنت قد كتبت وتركت للزمن ما كتبت ، فلعل جيلاً ، غير جيلنا ، يجود به الدهر من بين أحضان الجزائر الولود فيكتشف آثارك وآثار غيرك من أعلام الأمة فيقرؤها فيعرف قيمتها فيجتهد في نشرها وبثها في الناس ..

عذرك معلمي فهذا الذي تلجلج به لساني في حضرتك لا يعدو أن يكون مجرد أمنية أو تساؤل .. تساؤل تلميذ محب يفوه به بين يدي شيخ خبير وأستاذ مجرب ...

وبعد فلعل فيما حاولت أن تعبر عنه هذه الكلمة من صدق الوفاء وحسن الاعتراف بالجميل لأهله ، ما يساعده على إغضاء الطرف عما يكون بها من ملامح التقصير والقصور .. وإن لصاحبها إن شاء الله - عودة للموضوع يقف فيها - خدمة لتراث الأمة ، وتخليداً لمآثر رجالاتها - وقفة أطول يحلل فيها مختلف أطوار حياة الفقيد ، ويكشف عن عوامل نبوغه ومقومات شخصيته ، ويعرف بآثاره ، وبمنهجيته في التأليف وخصائص أسلوبه ، ويبرز آراءه في الفكر والمجتمع والحياة .. وإن البحث سيبقى - بحول الله - متصلاً ، ولاشك أن الزمن بما يجود به على الباحث بين الفينة والأخرى من حقائق ، وبما يفسح له من فرص بذل الجهد ، وحسن استثمار الوقت لكفيل بإثراء بعض جوانب الموضوع وتعميقه بما يسمح بكتابة ما هو أوفى وأعمق وأشمل ..

وبعد معلمي .. وإن كان الحديث عن حضرتك في هذه العجالة قد أشرف على نهايته ، فثق أن قلب صاحبه - كقلوب جميع من تتلمذوا على يديك ، أو ربطتهم بك صلة من الصلات - سيظل يخفق بالوفاء لذكراك ، ما جلس هذا التلميذ بمجلسك ينهل من معين علمك وينتفع بسديد توجيهاتك زمان الصبا بمسجد عقبة بن نافع ، وعلى عهد الشباب بغرفتك الصغيرة بنزل (ابن الخفاف) بالجزائر العاصمة في سنوات منفاك ومنفانا جميعاً ، وقد أخرجتنا يد البغي من ديارنا كما أخرجت من قلبنا ومن بعدنا كثيراً من الجزائريين من ديارهم في أعوام الشدة بل أعوام الرخاء والبذل والفداء قرباناً لتحرير الجزائر واسترجاع سيادتها والمحافظة على هويتها ..

ولا يسعني - أستاذي - وأنا أتأهب لطي هذه الصفحة الى حين ، إلا أن أعود فأترحم على روحك الطاهرة ، وابتهل الى الله أن يجزل لك المثوبة ، وأن ينزلك خير منزل مع من أنعم عليهم من عباده الأعلام الزهاد ، الصالحين المصلحين .. ومع الشهداء والأنبياء والمرسلين - وحسن أولئك رفيقاً ...

الهوامش

(1) من العيديات المجهولة جمع وتحقيق صاحب هذه الكلمة .

(2) توفي رحمه الله في مطلع العام الحالي 1995 .